دموع باريس

روايـة

بقلم : دكتور حسين مؤنس

obeikandl.com

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب المصرية
إدارة الشئون الفنية

مؤنس ، حسين .
دموع باريس : رواية /بقلم حسين مؤنس . - ط ١ . -
القاهرة : دارالرشاد للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٧
٦٤ص ؛ ١٤ × ٢٠ سم .
تدمك ٠ - ١٠٤ - ٣٦٤ - ٩٧٧
١- القصص العربية
أ- العنوان ٨١٣

الناشـــــر : دار الرشـاد
العنـــوان : ١٤ شارع جواد حسنى . القاهرة
تليفـــاكس : ٢٣٩٣٤٦٠٥
بريد إلكترونى : Dar_al rashad @ hotmil. com
رقـم الإيـداع : ١٦٥٢٧ / ٢٠٠٧
جمـــع : النصر للجمع التصويرى
تليفـــون : ٧٨٦٣١٩٩
طبـــع : عربية للطباعة والنشر
تليفـــون : ٣٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٣٢٥١٠٤٣
الطبعـة الأولى : ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م
مـــراجعـة : عادل أبو المعاطى
الغـلاف للفنان : عبادة الزهيرى

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

obeikandl.com

دموع باريس

رأيتها مرارًا قبل أن أعرفها . ولكنها كانت بالنسبة لى شيئًا بعيد المنال جدًّا . كنت أراها كما أنظر إلى نجمات السينما أو لوحات رسمها فنانون كبار : للرؤية فقط . . الرؤية من بعيد .

كانت جميلة جدًّا وإن كانت صغيرة الحجم . كانت كأنها دُمْية جميلة صنعها صانع بمهارة وحب ، وكانت أنيقة : لا تراها قَطّ مرتين فى ثوب واحد ، كانت لديها سيارة حمراء من ماركة اختفت اليوم : انسالدو ، ولكنها فى أيامنا كانت رمزًا للثراء ووفرة المال ، وأيامها كان الطلاب فى الجامعة لا يملكون سيارات . كانت الدنيا أفقر بكثير مما هى اليوم .

وكانت نفسى ترتاح لرؤيتها أحيانًا . كنت أجلس على أحد مقاهى شارع ميشيل بولفارسان ميشيل أو البول ميش كما يسميه الطلاب ، لكى أراها - وهى تختفى بسيارتها - مجرد رؤية ، وكان فى هذا كفاية .

وكنا زميلين فى درس واحد ، ولم يكن فى الدرس سِوَانا . كنا فى المدرسة العليا للدراسات التاريخية فى جامعة باريس ، وكان الدرس خاصًّا بصراع البيزنطيين مع البلغار . أما أنا فكنت أدرس الموضوع

لأنه يتصل بتاريخ الإسلام ، فقد كان البلغار حتى القرن التاسع مسلمين ، وكان يهمنى أن أعرف . . كيف تحولوا عن الإسلام ؟ أما هى فما فهمتُ قَطّ . . لماذا تدرس هذه المادة الجافة ؟ قال لى أستاذنا واسمه الدكتور بيكرمان : إنها بلغارية الأصل وإن كانت اليوم كندية . أهلها هاجروا إلى كندا من زمن طويل . هناك اغتنوا وتموَّلوا ، وقد أتت إلى باريس لأن عمها وهو ولى أمرها طلب منها أن تدرس فى باريس وتتخصص فى تاريخ بلغاريا . ودولة الروم .

وأضاف الدكتور بيكرمان : ولا أظن أنها ستدرس من ذلك شيئًا . إنها مسجلة فى مادتى هذه من ثلاث سنوات ، ولا أذكر أنها حضرت ثلاثة دروس ، إنها تحب اللهو والاستمتاع ، وهى تنفق الألوف ولم لا ؟ هناك ناس يُولدون سعداء : مال وجمال وشباب . وكان اسمها استفانيا : ولكنها كانت مشهورة فى السوربون كله باسم استيفى أو استيفى الجميلة «استيفى لابل» أو استيفى المجنونة أو «استيفى لا فول» . والجنون مكروه إلا فى الشابات الجميلات .

وكان الدكتور بيكرمان روسى الأصل ، وربما كان أيضًا بلغاريًا وكان يعمل فى هذا المعهد فى باريس فى انتظار فرصة الهجرة إلى كندا ليعمل أستاذًا فى إحدى جامعاتها ، فقد كان عم استيفى قد تبرع بمال عريض لجامعة البرتا بداخل كندا ، وكان يرشح بيكرمان لكرسى الدراسات البيزنطية .

لهذا كان بيكرمان يحب استيفى ويعطف عليها ويتحمل من متاعبها الشيء الكثير ، وكانت لا تحضر الدرس قَطّ وكان هذا يؤلم بيكرمان . كنتُ دائمًا وحدى معه فى الدرس وكان يقول لى : دعها . ستعقل يومًا من الأيام . نكرمها لخاطر عمها . ساعدها إذا استطعتَ أعطها مذكراتك .

- ولكن يا أستاذ ، إنها لا تكاد تنظر إلىَّ .

- ستنظر إليك يومًا من الأيام . أنت لا تعرف استيفى .

* * *

واقترب الامتحان ، وأعددتُ نفسى له إعدادًا طيبًا . وذهبتُ يومًا إلى الجامعة لأدفع الرسوم . وجدتها هناك . كانت فى انتظارى . الأستاذ بيكرمان قال لها : إننى سأعمل لها الإجراءات كلها . تعرَّف أحدنا إلى الآخر . أعجبتنى منها بساطتها وراقنى مَرَحُها . بعد أن دفعنا الرسوم وأتممنا كل شيء قالت لى :

- أين نذهب ؟

- كما تشائين .

- نأخذ الشاى فى محل بونس ؟

- كما تشائين .

وبونس كانت قاعة جميلة جدًّا للشاى . كانت تطل على حديقة اللوكسمبورج . كانت مفروشة بالبُسُط وكان الشاى يُقدَّم فيها فى أوانى كريستوفل وسيفر . فى نفسى شىء يحب الفخامة والترف ، إنه حب الحضارة ، أحيانًا كنت أستغنى عن الغداء لكى أوفر شيئًا من المال آخذ به الشاى عند بونس .

أعجبتنى فيها أناقتها البالغة ورشاقتها التى تملأ النفس مسرَّة . خلعتْ معطف المطر الأزرق الجميل وتناوله منها الخادم ، قالت وهى تضحك :

- أنت ضيفى .

- لا يليق ..

- لا .. يليق وأنتَ ضيفى !

- كما تشائين . أرجو ألا يكون هناك فرق أو تكليف بيننا ..

- لقد حدَّثنى عنك بيكرمان حديثًا طويلاً .. ماذا قال لكَ عنى ..؟

- لم يقل شيئًا كثيرًا ، ولستُ فى حاجة إلى أن يقول لى أحد عنكِ شيئًا . يُخيَّل إلىّ أننى أعرفكِ بما فيه الكفاية .

- غريب .. هذه أول مرة نلتقى ..

- لا .. لقد التقينا مرارًا . أصارحك الحق كنت دائمًا أحب أن أراكِ من بعيد .. لم أكن أتوقع أن أجلس إليك مرة .. كنتِ بالنسبة لى شيئًا مثل نجوم السينما .. استر وليامز أو أفا جاردنر .. مثلاً .. وضحكتْ ، وجرى الحديث بيننا هَوْنًا ، ثم دخلنا فى موضوع الامتحان فقالت :

- قال لى الأستاذ بيكرمان إنك ستساعدنى .

- كل ما تريدين ..

- إن بيكرمان هو ولىُّ أمرى هنا ، وهو الأستاذ والمراقب والمصحح . فلا بأس علينا من أية ناحية .. أريد أن أقول : لا تخف .

- ومِمَّ أخاف ؟ قولى : ما المطلوب منى ؟

- اسمع يا سيدى .. على فكرة لماذا لا تنادينى باستيفى .. المطلوب منكَ أن تجلس فى الامتحان على نحو أستطيع معه أن أنقل منك .. سأجلس وراءك .. بينى وبينك .. أنا لم أقرأ كلمة ..

- مراقبنا فى الامتحان سيكون بيكرمان ؟

- وهو الذى سيتولى التصحيح .

- إذن فسأفعل كل ما تريدين .. ومبروك مقدمًا ..

- صدِّقنى إننى متعبة جدًّا ..

وبعد لحظة صَمْتٍ :

- حياتى لا تعجبنى .. إننى غير سعيدة .. إننى متعبة .. وَزْن الحياة على أكتافى ثقيل ..

- لم أكن أتصور ذلك .. كنت أتصوركِ أسعد مخلوقة فى الدنيا ..

- وها أنت ذا ترى حالى .

- لا أدرى إن كنت أستطيع دعوتكِ للعشاء ..

- إنى مرتبطة .

- وهذه الارتباطات هى سبب تعبك .. دَعْكِ منها وتعالى معى .. إننى إنسان بسيط . . سنأكل فى تافرنا صغيرة فى شارع ليل ..

- سأذهب معك .. لا أدرى إننى مرتاحة لكَ .. أنت رجل هادئ مطمئن .. تتكلم بهدوء وثقة .. أريد أن آخذ منكَ شيئًا من ذلك كله .

- كُونى تلميذة مُطِيعَة ربما تشعرينَ بالسعادة .

- وتعشَّينا معًا ، ركبت للمرة الأولى سيارة خاصة فى باريس . جلست مع استيفى فى الإنسالدو . ضحكنا طويلاً وتكلمنا كثيرًا ، أوصلتُها

إلى دارها فى سيارتها ، إنها تسكن فى شارع كونديه نى ياسى أجمل أحياء باريس .

قالت وأنا أُودِّعها :

- تصدق ؟ هذه أسعد ليلة قضيتُها منذ شهور ..

* * *

وجاء يوم الامتحان .. كانت هناك قبلى وكانت تتحدث مع الأستاذ بيكرمان . الامتحانات هناك شىء عادى لا يشعر به أحد . ليست لها هذه الرهبة الصبيانية التى نحيطها نحن بها هنا . جلستُ مكانى وجلست هى ورائى لتنقل منى كما اتفقنا ، وكتب الأستاذ السؤال على السبورة ، وأشعل سيجارة ومضى يقرأ كتابًا . قرأت السؤال ونظرتُ إليها ، كانت تنظر إلىَّ بعين قطة تحب الدعابة يبدو أن اللعبة أعجبتها .

ومضيتُ أكتب بخط كبير . وتركت الطريق بينها وبين ما أكتبه خاليًا لتقرأ وتفعل ما تريد ، ثم أخذتنى مطالب الإجابة فنسيت نفسى ونسيتها ومضيتُ أكتب وأكتب وأنا أحسب أنها تنقل ما شاء لها النقل ..

قبل نهاية الوقت المحدد بدقائق نهضتْ ووضعتْ الورقة على مكتب الأستاذ ومضت مسرعة . بعد لحظات أتانى وأرانى ورقة بيضاء ليس

عليها إلا اسمها .مع ورقة الامتحان كانت هناك قصاصة تقول فيها : معذرة لم تسمح نفسى بأن أخون نفسى أو أستاذى أو صديقى ثم كتبتْ عنوانها .

هَزَّ الأستاذ رأسه ، وقال :

- امضِ أنت فى عملكَ يا بنى . مسكينة هذه البُنيَّة ولكنها على الأقل تحترم نفسها .

وراجعت إجابتى وسلمت الورقة للأستاذ :

- تعطينى هذه القصاصة ؟ أظن أنها لى .

- إنها لى ولك .. خذها ..

وعندما كنت بالباب سأل :

- هل ستذهب إليها ؟

- لا أدرى إنْ كان من حقى أن أطرق بابها ..

فسكت لحظات ثم قال :

- أنا أيضًا لا أدرى ، ولكنى أحس أنها فى حاجة إلى عَوْن . هذه الورقة استغاثة بى وبك . أنا شخصيًا لا أستطيع الذهاب . أنت تفهم عنى. سيحسبون أننى أسعى للوظيفة التى وعدنى بها عمها . ولكنك أنت تستطيع ..

- ترى ؟ هل أذهب إليها ؟

- أعتقد ذلك .

* * *

عندما دخلتُ ردهة البيت استوقفتنى الفخامة . كل ما هناك كان رخامًا ونحاسًا وزجاجًا ملونًا . البوابة سيدة محترمة بدينة لا تفارق السيجارةُ فمها . عندما رأتنى قالت :

- أنا أعرفك .. أنت صديق مدموازيل استيفى .. مسكينة هذه الأمريكية ! كل الأمريكيات اللاتى يأتين باريس مسكينات ، عندهن المال والشباب أما العقل فلا يعرفنه . باريس تحطمهن جميعًا .. يُخيَّل إلىَّ أنهن يأتين إلى هنا ليتحطمن .

- لماذا تقولين هذا الكلام ؟

- لأننى حزينة على المدموازيل .. أتت من ساعة تحمل حزن الدنيا كلها .. كانت تبكى ..

- هى هنا إذن ..

- أجل ولكن ربما كانت نائمة أو ربما كانت فى الفيراندا البعيدة . عليك أن تدق الجرس كثيرًا ..

ودققت الجرس حتى تعبت يدى .

كان السُّلم رخاميًا فخمًا ، وكان هناك شباك كبير مُزَّينٌ بالزجاج الملون ، جلست على السلم ومضت نحو ساعة .

ثم سمعت خطوات داخل الشقة . عُدْتُ أضغط الجرس . فتحتْ الباب ، رأيتها وعلى وجهها حزن الدنيا كما قالت البوابة . قالت كأنها لم تستغرب مجيئى :

- أدخل .. كنت أنتظرك ..

بهرتنى فخامة الشقة . كانت واسعة جميلة كل ما فيها غالى الثمن . ظللتُ صامتًا أتامل فعادت تقول :

- لماذا لا تدخل .. لماذا لا ترد علىَّ ؟

- هل قلتِ شيئًا ؟

- قلت إننى كنت أنتظركَ ..

- أحسستُ بذلك ..

- ولماذا تأخرتَ ؟

- لى أكثر من ساعة هنا ..

- كنت نائمة ..

وجلستْ وأجهشتْ باكية . تركتُها تبكى لأن البكاء راحة ورحمة . كانت بنفس ملابس الصباح ولكنها خلعت الحذاء فبدت كأنها طفلة . نظرت إلىَّ طويلاً ثم قالت :

- لا تفتح إن ضرب أحدٌ الباب ..

- يُستحسن أن تقولى للبوابة .

رفعت سماعة تليفون خاص بالبوابة ، وقالت :

- مدام فولار .. إننى لست هنا .. أيًا كان الطارق فلست هنا ..

- نعم هو هنا ..

وفهمت أن العبارة الأخيرة تعنينى .

ثم ذهبت وأحكمت رتاج الباب وأطفأت النور الكبير . لم يبق إلا الضوء الخافت الهادئ المترامى عبر نافذة واسعة ملوَّنة .

قلت :

- ما هذا الذى فعلتيه ؟

- وهل كان هناك حل آخر ؟

- ألم يكن هناك اتفاق ؟

- لو إنسان غيرك لما ترددت فى النقل منه .. ولكن أنت .. لا أدرى .. لم أستطع أن أفقد احترامك .

- لم أفكر فى ذلك .

- هل كنتَ ترضى أن أكون غشاشة ؟

- لا . . عندكِ حق .

- لا أدرى لماذا أطمئن إليكَ .. من يوم اجتمعنا فى قاعة بونس وأنا مشغولة بك .. لا .. لا أقصد ذلك .. أقصد أننى كنت أحس أننى أريد أن أراك ..

- وها أنذا بين يديكِ ..

قالت :

- تعال نجلس فى القاعة الداخلية .. أريد أن أقول لكَ كلامًا كثيرًا .. إننى متعبة يا .. على فكرة بماذا أناديك .. هل تتصور أننى أجهل اسمك ..

- سمِّنى كما شئتِ ..

- ما اسمكَ ؟

- فلان ..

- لا يعجبنى ..

- قلت : سَمِّنى كما تشائين ..

- أُسَمِّيكَ تيو .. إنه اسم جبل يطل على ضيعتنا فى البرتا .. الجبل اسمه تيو جران . وأنا أحبه . هل يعجبك الاسم ؟

- لا يعجبنى .. ولكن الاسم لا يهم .. ليكُنْ ما تشائين .

- تيو .. إننى ضائعة .. أريد أن أجد نفسى .. أريد أن يجدنى أحد ويدلنى على نفسى .. لا تسخر منى .. إننى غير سعيدة .. عندى كل شىء ولكنى غير سعيدة . . إننى ضعيفة جدًّا ..

- أنت لستِ ضعيفة .. أنت طيبة القلب ..

- أريد رجلاً إلى جانبى .. لقد مات أبى وأمى فى حادث سيارة فتولى أمرى وأمر أختى عمى .. إنه رجل كريم جدًّا .. أسرف فى تدليلنا وهذه هى النتيجة .. إن أختى أحسن منى ولكننى أنا كارثة ! كل ما أفعله هو أن أضيع مالى وعمرى .. أربع سنوات فى باريس لم أفعل شيئًا .. إننى ضائعة .. خائفة أن أضيع بلا عودة ..

- لن تضيعى يا استيفى .. الدنيا بخير ..

ثم أطالت النظر إلى الفيراندا الواسعة ، وقالت :

- لماذا أشعر بالاطمئنان إليك ؟

- ربما لأننى أُذكّركِ بعمك ..

- ألم أقل لكَ إن عمى هو الذى ضيَّعنى ..

- لم تضيعى أبدًا يا استيفى ..

- إننى متعبة يا تيو .. لا أريد أن تتركنى .. أريد أن أنام الآن وأصحو لأجدكَ هنا .. لا بد أن شكلى مخيف .. أريد أن أنام لكى ترانى فى صورة أحسن .. هل تنتظر حتى أنام ؟

- نامى كما تشائين .. أنا أيضًا متعب .. سأستريح هنا فى هذا الصالون الجميل .

- حسنًا .. هنا فى هذه الطُّرْقة تجد المطبخ على يمينك ، الثلاجة والدواليب ملأى بالطعام .. عندك أيضًا حمام واسع جميل . إنه حمام عمى .. دواليبه ملأى بالملابس .. خذ ما تريد .. لا تقلق بسببى .. عندى حمام آخر فى غرفتى ..

ثم تثاءبت وقالت :

- إلى قريب يا تيو ..

ومضت ودخلت جناحها وأغلقت الباب .

* * *

وجدتُ نفسى وحدى فى ذلك البيت الفرنسى الجميل . كل ما كان حولى ينطق بأنه فرنسى . ذوق بديع ترى فيه خط الذوق الفرنسى من أيام لويس الرابع عشر .. حقًّا إن الحضارة شىء عظيم ..

وسرتُ إلى المطبخ . كان بالفعل حافلاً أكلت ما تيسَّر ثم دخلت حمامًا كأنه حمام سلطان تركى . غسلت نفسى وفتحت الدواليب ولكننى لم أمسّ شيئًا فيها . كانت حافلة بالملابس : دولاب كامل كله بذلات من كل لون ، ودولاب لملابس البيت داخلية وخارجية . حقًّا إن الغِنَى جميل !

وأردتُ أن أُمشِّط شعرى . ذكرت وصية مدام إليس ألبرتى راندان التى أسكن عندها من زمن طويل : كن دائمًا فى أحسن هيئة .. عُدْت إلى الحمام واخترت قميصًا جميلاً جدًّا وأخذت بذلة أيضًا . غريب أن الملابس كانت مناسبة لى . خلعتُ ملابسى ودخلتُ فى ملابس أهل المال ..

وعُدْتُ إلى القاعة الجميلة أردت أن أنام ، قبل أن أستلقى على الأريكة نظرت إلى دولاب فى غاية الأناقة تقوم عليه المرآة .. هالنى ما رأيت .. قدر هائل من الجواهر والمصوغات : أساور وعقود وأقراط

وبتاتيفات .. شيء لم أرَ مثله إلا فى فترينات الصاغة .. وكانت هناك نقود كثيرة .. رَبْطات من الفرنكات والدولارات الأمريكية والكندية والجنيهات الإنجليزية .. ونقود ذهبية كثيرة جدًّا .. لم ألمس من ذلك كله شيئًا ولكننى وقفت واجمًا .. وانتبانى خوف .. فإن مثل هذا المال الكثير له رهبة ومسئولية .. ووجوده مكشوفًا مبعثرًا على هذه الهيئة يبعث على الشك . وهذه البنت أنا لا أعرفها إلا من ساعات .. ومن الممكن جدًّا أن تجرى بها الظنون إلى ما يسوؤنى.

تركتُ هذا الكنز على حاله . ومضيت فاستوثقت من رتاج الباب وقدَّرْت ألا أفتح الباب لأحد حتى تصحو البنت وترى أشياءها ، واستلقيت على أريكة مواجهة للدولاب ، ومضيت أشرب الشاى على مهل فى انتظار أن تصحو من نومها .

وكأنما أرادتْ أن تزيد قلقى ومخاوفى فنامتْ طويلاً ولم تَصْحُ إلا بعد أن هبط الليل . قامت منتعشة مستبشرة .

كان أول ما فعلتْه عندما خرجتْ من جناحها أن نادتنى ، فلما رددت قالت : الحمد لله .. الآن أحس أن إلى جانبى رجلاً . كَمْ أنا سعيدة لوجودكَ .

كانت فى أجمل صورها .. نظرتُ إليها طويلاً فأدركت أنها أفاقت من النوم من زمن ، ولكنها أنفقت وقتًا طويلاً فى التجمُّل . كان شعرها الحريرى مُرْسلاً على جوانب وجهها كأنه خيوط من ذهب . كانت زُرْقة عينيها صافية كأصفى ما تكون السماء فى اليوم الجميل . كان وجهها الوردى أنيقًا يتحدث عن ذوق باريس وفن باريس فى تجميل بنات حواء .. وكانت تضحك كأنها طفلة .

وجلستُ على البساط إلى جوارى وصبَّتْ لى الشاى ، وعندما آنستُ منها هذه المودة كلها قلت لها :

- قُومِى وانظرى فوق هذا الكونسول ..

- ماذا هناك ..؟

- انظرى أولاً ..

وقامت ونظرت وصرخت قائلة :

- يا إلهى .. مصوغاتى ، جواهرى .. نقودى ..

ثم التفتتْ نحوى وفى عينيها فزع وريبة واتهام !

* * *

وظلت تنظر إلىَّ والخوف فى عينيها ، ثم قالت :

- ماذا أتى بذلك كله إلى هنا ..؟

- لا أدرى .. بعد أن خرجتُ من الحمام حانت منى نظرة فوجدت هذا كله كما ترين ، ما مسستُ شيئًا منه بأصبع .

- ولكن .. كيف أتى إلى هنا .. لا بد أن لصوصًا دخلوا هذا البيت ..

- ربما .. ولكن انظرى أولاً .. هل ضاع منه شىء ..؟

- لا أدرى .. ذلك كله كان فى صندوق حديدى أحتفظ به فى حجرة نومى .. إنه خزانة صغيرة ...

وَتَلَفَّتُّ حولى فوجدتُ الصندوق الحديدى على كرسى إلى جانب الكونسول فقلت :

- إليس .. هذا هو الصندوق ..؟

- نعم ..

وأمسكتْ به تنظر فيه ، ثم استخرجتْ منه ورقة فهمتُ بعد ذلك أنها قائمة بمحتوياته ، فقلت :

- تعالَىْ نراجع القائمة على الموجود . هكذا نعرف إن كان هناك شىء مسروق ..

ومضينا نراجع وانتهينا إلى أن كل شىء هنا عدا قرطًا من الماس وعقدًا من اللؤلؤ وأسورة ذهبية ذات معلقات ..

قالت :

- هذه سُرِقت ..

قلت :

- لا .. هذه لم تُسرق .. انظرى فى حمامك أو إلى جانب دولاب ثيابك أو على المنضدة الصغيرة .. إلى جانب سريرك .

ودخلتْ وغابت لحظات ، وعادت تقول :

- وجدتُ العقد والأسورة .. بَقِىَ القُرْطان ..

وابتسمتُ وقلت :

- إنهما فى أذنيك ..

وتحسستْ أذنيها وخلعت القُرْطين وضحكت ، وقالت :

- عندكَ حق .. ولكن .. مَنْ أتى بالصندوق وفتحه ووضعه هنا ؟

- لا أدرى

ومضت تفكر ، وجلست على البساط وعادت تشرب الشاى ، ثم عاد إليها الفزع وقالت :

- أنا .. أنا التى فعلت ذلك .. يا إلهى ، يا لى من غبية .. كدتُ أضيع مالى كله ! ألم أقل لكَ إننى لا أصلح لشىء .

obeikandl.com

- قُولى لى الآن ، ما الذى حدث ..

- الآن أذكر ما حدث ! من أربعة أيام أو خمسة .. كان ذلك مساء الثلاثاء . كان عيد ميلاد واحد من أصحابى وكنت قد نسيت الموعد . فانتظرونى ثم استدعونى بالتليفون ، فأسرعتُ أرتدى ملابسى ، وبسبب تعجُّلى أخذت الصندوق ونثرت ما فيه كما ترى لكى أختار ما أريد . ثم تركت كل شىء فى هذه الفوضى وجريتُ ! ثم مضت تضحك وقالت : تصوَّر أننى أُلِحُّ على البوابة من أربعة أيام لكى تصعد لتنظيف الشقة ، والمفتاح عندها ! لو أنها دخلت مرة لاكتشفت ذلك كله ، ولما استطعت أن أعود عليها بشىء .

وسبحتْ مع أفكارها وعَلَتْ وجهها كآبةٌ ..

قلت :

- الآن قومى فضمى أشياءك مكانها ، وعِدِّى نقودك ، خاصة تلك القطع الذهبية الكثيرة ..

- الآن أقوم .. دعنى أشرب الشاى ..

- أرجوكِ .. قومى الآن ، وسأذهب أنا إلى المطبخ لعمل شاى جديد ..

- قالت : أرجوك أن تظل مكانك . سأعيد هذه الأشياء إلى مكانها وأعود لأُعِد لنا طعامًا .. أريد أن تتعشى معى الليلة هنا ..

وأخذتْ الصندوق وأخذت تضع أشياءها ونقودها .

ودَقَّ جرس التليفون ، فنهضت لأردّ . قالت :

- أرجوك .. لا أريد تليفونات من أحد . انزع الفيش أرجوك . لا أحد اليوم إلا أنت وأنا .. إذا طرق الباب فلا تفتح .

وغابت بعض الوقت فى غرفتها . وعادت وهى فى كامل أناقتها ، ومدَّتْ يدها إلىّ بشىء تناولته فإذا به عملة ذهبية قيمتها خمسة جنيهات .. قالت :

- هذه لكَ ..

- اعفنى من تلك الهدايا يا عزيزتى ستيفى .. صدِّقينى إننى لا أريد تكفينى صداقتكِ ..

قالت :

- أما أنا فأريد منك أكثر من الصداقة .. هذه الهدية لا شىء . إننى أتمنى أن تأخذنى وكل ما عندى . طول عمرى أشعر أننى فى حاجة إلى رجل مثلك . أريد عمادًا أسند إليه ظهرى . إننى ضائعة كما ترى. أهلى ضيَّعونى وأصدقائى نهبونى وأريد أن أنجو بشىء ، أريد أن أعيش فى هدوء .. أريد أن تكون لى أسرة : زوج وأولاد وبيت ..

إن مالى كثير كما ترى .. عندنا فى «البرتا» ثروة ضخمة وليس هناك إلا عمى وأنا وأختى ..

- تقصدين ؟

- أجل .. أقصد بالضبط ما فى ذهنك .. أنا أعرف أن العادة لم تَجْرِ بذلك ، ولكن هناك لحظات لا بد أن يتصرف الإنسان فيها تصرفًا غير عادى . عندما تجد المرأة الرجل الذى تبحث عنه ينبغى فى رأيى أن تقول له إنها تحب أن تكون زوجته . وقد رأيتُ فى عينيك أننى أعجبك .. لهذا لا أتردد .. إننى أريد أن أكون زوجتك . لا أريد أن تخرج من حياتى ولا أريد أن أخرج من حياتك ..

ونظرتُ إلى قطعة الذهب فى يدى ، ثم قلت :

- هل تُصدِّقينى يا ستيفى ؟ إن هذه أول مرة فى حياتى أجد فى يدى قطعة ذهب . إننى رجل بسيط جدًّا يا ستيفى . إننى طالب . طالب مصرى لا يملك إلا الرغبة فى النجاح والأمل . . والذى تعرضينه علىَّ كثير جدًّا ، إنه أكثر مما أحتمل .. لم أفكر قَطّ فى أن أكون صاحب مال ، ولا خطر ببالى مرة أن تكون لى زوجة فى جمالك أو حسبك ..

فقاطعتنى قائلة :

- هناك سؤال واحد يهمنى هنا : هل أُعجبك وترضى بى زوجة ..

- قطعًا .. ولكن ..

- كل «اللاكنات» بعد ذلك لا شىء . المهم هو أننى أعجبك وأن تحس نفس إحساسى : تريد أن تعيش معى عمرك كله .. الباقى تفاصيل .. كل شىء نستطيع تذليله ..

ثم اقتربتْ منى ووضعتْ كفَّيها على كتفى ، وقالت :

- أتدرى ماذا كان شعورى قبلك ؟ شعور خوف دائم .. كنت أسير فى الحياة كالسائر فى المطر دون مظلة .. والآن فجأة توقف المطر وسطعت الشمس وفى يدى مظلة ..

وضحكت .. وجرت نحو المطبخ ، وهى تقول :

- إننى طالبة غير موفَّقة ، ولكننى قطعًا زوجة صالحة .. سترى الآن عيِّنة من طعامى الذى ستأكله ما بقى لك من عمر .

* * *

وبقيتُ وحدى فى تلك القاعة الجميلة وفى يدى القطعة الذهبية الكبيرة ، وضعتها فى جيبى وجلست ، وجعلت أقول :

- مشيئتك يا رب ! ذلك تحقيق كل آمالى : مال وجمال وهدوء بال ومستقبل كأنه رَوْضٌ .. لتكُنْ مشيئتك . من الكفر أن أرفض هذه النعمة كلها .

ثم سبحَتْ بى أفكارى وردَّتنى الأفكار إلى واقع حياتى وقلت لنفسى : ولكن . ماذا أعمل وأنا طالب وعضو بعثة وللدولة عندى حقوق ! ماذا أعمل وفى رقبتى أسرة من أم وأخوات كلٌّ عهادهن علىَّ ؟ ماذا أعمل وأنا أحلم طول عمرى بأن أكون أستاذًا أعيش بالعلم وللعلم .. ماذا أعمل وهناك وراء البحر وطن أعتقد أنه بحاجة إلىَّ ..

وقطعتْ ستيفى حبل أفكارى . كان الطعام الذى أعدَّته جميلاً جدًّا . أكلنا فى المطبخ الفسيح المنير . أكلنا وضحكنا ورسمنا صورًا جميلة زاهية لمستقبل ما زال وراء السحاب .

بعد العشاء قلت :

- الآن أعود إلى بيتى .

- وتتركنى وحدى .

- إلى حين .. إن إليس تنتظرنى .

- ومَنْ إليس ؟

- إليس البرتى راندن ربة البيت الذى أسكن فيه ، إنها ربَّة بيتى ووليَّة أمرى ..

- وهل هى جميلة ؟

- إنها فى الخمسينيات .. وجميلة أيضًا ..

- وما هذا السلطان الذى لها عليك .

- لا تخافى .. لا شىء هناك .. سأعرفك بها يومًا . وستحبينها ..

- وهل من الضرورى أن تَذهب ..؟

- أعتقد ذلك ..

- وفى الصباح تكون هنا ..؟

- نعم .. أرجو أن تغلقى بابكِ بالمفتاح .. لا تردِّى على تليفون ولا تستجيبى لأحد .. الليلة تنامين حتى الصباح .. سأكون أنا الذى أُوقظكِ فى الضحى ..

- نفطر معًا ؟

- نفطر ونتغدى ونتعشى ..

الأيام التى أعقبت تلك الليلة كانت من أجمل ما مر بى خلال العمر الطويل . كان كلانا يشعر بأنه يبحث عن نفسه ووجدها . أنا وجدتُ نفسى فيها ، وهى وجدتْ نفسها فىَّ وكنت قد حكيت القصة كلها لمدام

إليس ألبرتى راندان . حكيتُها لها عقب وصولى إلى البيت . كنت قد وصلت متأخرًا فوجدتها فى انتظارى لتحاسبنى على التأخير ، كنتُ أكره ذلك منها لأننى رغم إيمانى بضرورة الزواج كنت أنفر منه كراهة لاستبداد الزوجة ، لم يكن ينقصها إلا أن تمسك المقشة وتقف لى وراء الباب .

قالت عندما رأتْ وجهى :

- الآن تعود !

- نعم ..

- وماذا أخَّركَ ..؟

- سأقص عليك كل شىء . دعينى ألتقط أنفاسى . إن صعود ستة أدوار ليس بالعمل الهيِّن ..

- وهل من الهيِّن أن أظل أنتظركَ حتى الثانية بعد منتصف الليل ..

- وما منعكِ أن تنامى !

وفى غضب بالغ أسمعها تقول :

- الآن تقول لى ذلك بعد أن لمتكَ من الطريق وهذَّبتك وجعلتكَ إنسانًا ..

ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى أسمع فيها هذه الأنشودة . إنها لم تَنْسَ أبدًا أنها علَّمتنى وهذبتنى ونفضت عنى التراب ، ولا أنا نسيتُ ذلك ، ولكن تكرار المنِّ ثقيل . ولو رجل غيرى لردَّ العنف بالعنف ، ولكنى كنت أحبها وكان شكرى بالعرفان لها عميقًا جدًّا ، ثم إنها كانت فى الخمسينات ، والمرأة فى الخمسينات تحتاج إلى تدليل وصبر طويل ، خاصة إذا كانت مثل إليس لا تريد أن تسلم قَطّ أن السنوات تمر عليها كما تمر على غيرها .. فكانت عادتى إذا رأيتُ منها الغضب أن أصمت ، أدعها تشتم وتصيح وأنا صامت ، وبين الحين والحين أرجوها أن تعفو عنى وأن تنسى حماقتى وقِلَّة عرفانى للجميل . وبعد الثورة ترضى عنى ، وعلامة الرضا هى أن تسأل :

- هل تعشيتَ ..؟

- نعم ....

ويعود إليها غضبها :

- مع مَنْ ؟

- اجلسى يا إليس .. اجلسى ستسمعين حديثًا عجبًا ..

وتسرع إلى المطبخ وتُعِد إبريقًا من الشاى ، وتعود وتجلس لتسمع الحديث العجب .. وكنت أحسب أنها ستحطم الإبريق على رأسى ،

ولكنى أرى أنها تأثرت لقصة هذه المسكينة ستيفى . وعذرتنى لقضاء الوقت معها ووقوفى إلى جانبها ، ثم تتغير ملامحها وتسأل :

- وغنيَّة هى ؟

- جدًّا ..

- وكريمة هى ؟

- جدًّا جدًّا ..

- إذن نستطيع أن نُسلِّيها ونخففَ عنها ..

- أراك أدخلتِ نفسكِ فى الموضوع ..

- عساك ظننتَ أننى أدعك معها وحدك ..

- لا يا إليس .. لا شىء يحلو لى هنا بدونك .. سأقدِّمها لكِ وستحبينها .. غدًا ستأتى لزيارتنا بسيارتها ..

- وعندها سيارة ..؟

- نعم عندها سيارة ..

وبرقتْ عيناها ، وصَبَّتْ لى الشاى .

ومن الغد أتت ستيفى . منذ اللحظة الأولى تآلفت المرأتان ، كانت إحداهما فى حاجة إلى الأخرى ، كانت إليس فى حاجة إلى بنت تُفْرِغ عليها حنانها ، وكانت ستيفى فى حاجة إلى أم تريح رأسها على صدرها.

ولكن أكثر ما سَرَّ إليس أن ستيفى كانت غنية وكريمة ، فلم تدع فرصة لاستغلال هذا الكرم إلا انْتَهزتْها . لا يتصور أحد العقلية المالية للبورجوازية الفرنسية ، وإليس كانت بورجوازية من رأسها إلى قدميها ، وكانت باريسية تحب الملابس وتحب العطور وتحب الطعام .

كانت تختار لنا كل يوم مطعمًا نتعشى فيه ، وكانت تتحرى أن يكون من أكبر مطاعم باريس وأغلاها ، وكانت تذهب معها إلى دور الأزياء فى فوبور سانت أو فوريه وتعود بملابس تكلف ستيفى المبالغ الطائلة ، وكانت تشترى على حسابها عطورًا من كل صنف .

وأقول لها :

- خفِّفى عنها يا إليس .. إنها بنت طيبة وهى تحبنا ..

- تحبك أنت ..

- إذن خَفِّفى عنها لخاطرى ..

- يا مسكين .. أنت لا تدرى ماذا يحدث غدًا .. دعنا نستمتع باليوم قبل أن يأتى الغد ..

وتذهب إلى غرفتها وترتدى شيئًا مما اشترته من مال ستيفى وتعود تقول :

- أليس جميلاً ؟

- طبعًا جميل .

- أتدرى أجملَ ما فيه ؟ أننى لم أدفع فيه شيئًا .. طول عمرى أحلم بأن ألبس شيئًا من عند ماجى روف .. هذا الفستان من ماجى روف ..

وبعد لحظة صَمْتٍ :

- ولكن .. ألا ترى أن ستيفى حزينة ؟

- أجل فى أعماقها حزن لا أدرى ما سببه .. إنها خائفة ..

- خائفة من شاب يُسمَّى جان كلود ..

- وَمنْ جان كلود ..

- شاب كانت تحبه ، أو أظن أنها لا زالت تحبه .. يبدو أنه شرير جدًّا وصعلوك نصَّاب ..

- وكيف تحب شريرًا صعلوكًا نصابًا ..

- لأننا نحن النساء مجنونات .. نحن نحب الشرير الصعلوك النصاب .. نحبه إذا كان جميلاً .. إذا كان هو يملأ القلب والعين .

فى اليوم التالى كنت مع ستيفى فى شقتها . فتحت لى دولاب عمها وقالت : انظر .. هذه كلها ملابس لم يلبسها من سنين ولن يلبسها قط .. لماذا لا تأخذها ؟

- لأننى لا أحتاج إليها ..

- ستأخذها .. أو ستأخذ أحسنها ..

- دعينا من ذلك وقولى لى : مَنْ جان كلود ؟

وقرأتُ فى عينيها رعبًا ، وظلت تنظر إلىَّ ثم رأيتُ دمعاتٍ تنحدر على خَدِّها وقالت :

- ولماذا تسأل عن جان كلود ..؟

- لأننى أحبكِ يا ستيفى .. أحبك ولا أحب أن يخيفكِ أحد ..

- إننى لا أخاف جان كلود .. لقد انتهى من حياتى .. انتهى ولن يعود ..

- هل أنت واثقة ..؟

- نعم .. ما دُمْتُ قد وجدتكَ فلم يعُدْ هناك إلا أنت ..

- إذن فقُصِّى علىَّ كل شىء .. أريد أن أعرف قصة جان كلود .

ولم ترد . ذهبت إلى الفيراندا ومضيتُ خلفها . وجلستْ على كرسى وثير وجلستُ إلى جوارها ..

وقصَّتْ علىَّ حكايتها مع جان كلود .

إنه شاب فرنسى جميل طويل عريض ولكنه صعلوك أو لص . ولكنها أحبته ، سرقها ونهبها وخانها مرة بعد أخرى ، ولكنها ظلَّتْ تحبه ، إنه أسوأ ما فى حياتها وأحسن ما فى حياتها ، إنه حبها وشقاؤها .

ثم التفتتْ نحوى ، وقالت :

- ولكنه انتهى الآن .. لن يخدعنى مرة أخرى .. أنت ستحمينى منه ..

- سأحميكِ منه إذا كنتِ أنت تريدين ذلك .. أما إذا كنتِ ما زلتِ تحبينه ، فماذا أستطيع أن أفعل ؟

- قلت لكَ إننى أكرهه وأحتقره ولا أريد أن أراه .. وأنت ستحمينى منه .. أليس كذلك ..؟

- نعم .. ويسعدنى ذلك .

وأسندتُ رأسها إلى صدرى ودموعها تجرى ، ونامت . وحملتُها ووضعتها فى فراشها وغطَّيتها وأغلقتُ عليها الباب .

بعد أيام كنا فى مطعم ومرقص فى ضاحية من ضواحى باريس تسمى « روبانسون » .

كانت ستيفى سعيدة جدًّا وطروبًا جدًّا .

وكانت إليس تأكل بنهمها المعهود .

وكانت الساعة الحادية عشرة ليلاً ..

ومن بعيد أقبل شاب طويل عريض وسيم ، نظرتُ إلى عينَىْ ستيفى فقرأتُ فيهما رعبًا .

كان هو جان كلود ..

واقترب واقتحم علينا مجلسنا دون استئذان ، ومضى يقول :

- ماذا جرى يا ستيفى .. أغيب عنك أيامًا وأعود فأجدكِ قد نسيتنى ؟

- لا أريد أن أعرفكَ .. وأرجوك أن تبتعد عن هذه المائدة .. إننى الآن مع خطيبى ..

ونظر إلىَّ ذلك الوقح وضحك ، ثم قال فى سخرية :

- خطيبكِ ؟ منذ متى .. ؟ وأين أنا ؟

وقالت إليس :

- اذهب عنا من فضلك .. حقًّا إنك سَمِجٌ جرىء .. فنظر إليها فى احتقار بالغ ، وقال :

- ومَنْ هذه هى الأخرى ؟ أُمّ خطيبك ..

ولا أدرى ما الذى حدث . لا أدرى من بدأ المعركة . الذى أذكره أننى اشتبكتُ معه بالأيدى ، وتضاربنا وحال بيننا الناس ، وصاحتْ ستيفى مُروَّعةً :

- الآن تمضى عنا أيها الوقح .

قال الشاب :

- أجل سأمضى .. ولكن لا بد أن أُصفِّى حسابى معكِ ..

- لقد صَفَّيْتَهُ ..

- لا .. ليس هنا .. لا بُدَّ لى من جلسة معكِ بعيدًا عن هذا الرجل وتلك المرأة ..

وقالت إليس :

- لا تذهبى معه يا ستيفى ..

وقلت :

- أرجوكِ يا ستيفى .. تعالى معنا .. سننام الليلة عند إليس .

صمتتْ البنت ، ثم قالت :

- وما ذنبكما ..؟

- إنه ليس ذنبًا .. إنه واجب .. أنتِ الآن فتاتى ، ولا شأن لهذا الغجرى بكِ .. فأمسكت بذراعى وقالت :

- لا تخف علىَّ .. دعونى معه الآن .. سأُصفِّى حسابى معه ، ولن يعود إلى حياتى أبدًا ..

وقالت إليس :

- ستيفى .. أرجوك .. لا تذهبى معه ..

- بل سأذهب لكى أضع حدًّا لعربدته .

قلت :

- فكِّرى يا ستيفى .. أنا لا آمن عليك ..

- لا تخف .. إن هذا الإنسان مشكلتى أنا .. وأنا وحدى أحلُّها .

وأشارت إليه ومضتْ ومضى خلفها وهو يضحك .

وأخرجت إليس منديلاً ومضت تمسح الدم من جوانب وجهى وشفتَىَّ ، لم أحس بها ، كنت أنظر إلى ستيفى وهى تسير كالأسيرة وخلفها ذلك الصعلوك .

وقالت إليس :

- ضاعتْ ستيفى .. ضاعت منكَ ومنى .. أنا أعرف ذلك .. قلت لكَ إنها تحبه .. إنه شقاؤها وهو سعادتها ..

- هل يُعْقل أن تعود إليه ..؟

- لقد عادت إليه ..

- ولكن ..

- ليس هنا ولكن .. هنا امرأة تعشق رجلاً .. امرأة مسكينة مصيبتها قلبها .. مصيبتها حبها .

- وأنا ..

- أنت ؟ أنت تدفع الآن الحساب وتعود معى وتحاول أن تنسى ستيفى .. هذه محكومٌ عليها بذلك الرجل .. أنا باريسية وأعرف ذلك .

وبالفعل كانت إليس صادقة فيما قررت ، كانت تلك نهاية ستيفى بالنسبة لى . انتظرتُ أيامًا أن أتلقى منها مكالمة دون جدوى . كان ألمى شديدًا لما حدث . لا أدرى إن كان سبب الألم أننى أحببتها أو أن سببه الخوف عليها وعلى مصيرها ، فهى فيما علمت إنسانة طيبة جدًا كريمة النفس حسنة النية . ولكنها لا تستطيع الوقوف وحدها فى تيار الحياة كأنها شجرة متسلقة لا بد أن ترتكز على شىء ، وهذا الشاب الذى استولى عليها «جان كلود» كان آخر جدار تستطيع أن تستند إليه .

أغرقتُ نفسى فى العمل ، تلك كانت وسيلتى فى الهروب من متاعب الحياة . كنت أذهب إلى مكتبة الجامعة فى الصباح ولا أخرج

منها إلا مع المساء . كنتُ أعمل هناك عملاً إضافيًا ، وخلال تلك الأيام شعرت حقًا أن الشيء الوحيد الذى يصلح الرجل وينفعه هو العمل . العمل الجاد . بعد أسبوعين رفعوا راتبى ، وشيئًا فشيئًا بعدتْ عنى ستيفى وذكريات أيامها .

فى ذات يوم ، عُدتُ فوجدت إليس تنتظرنى فرِحةً طَرُوبًا ، ولم تنتظر حتى أجلس لأستريح من السُّلم العالى . بل بدأت تقول :

- كنت عند ستيفى !

- زُرْتها فى بيتها ؟ ورأيتها ؟

- ذهبت إلى البيت أتحسس الأخبار ، أنت تعرف أنها صديقتنا ولا ينبغى أن ننساها ..

- وماذا قالت لكِ ؟

- لم أرها ! ذهبت إلى البوابة مدام فولار وتحدثت معها طويلاً ، إنها سيدة فاضلة وأعتقد أنها تحبكَ وتقدرك . إنها تريد منك أن تذهب إليها فلديها كلام كثير لك ..

- وستيفى ؟

- تقول مدام فولار : إنها سعيدة مع فتاها هذا جان كلود : كل يوم سهر ولعب وضحك ، ومن يومين ذهبا معًا إلى الريفيرا .

فنظرتُ إلى السقف طويلاً ، ثم قلت :

- إذن فقد ضاعت حقًّا ..

- ولكنها خلَّفَتْ لنا شيئًا ..

- وما هو ؟

- حقيبة ضخمة أعتقد أنها ملأى بالملابس ومعها خطاب لكَ .. ها هو ذَا ..

- وقرأت الخطاب .. إنها تحيينى وتقول إنها تعتذر عما حدث وتؤكد أنها ستتخلص من جان كلود هذا وتعود إلينا .

قرأتُ تاريخ الخطاب فإذا به قد انقضى عليه ثلاثة أسابيع . . . المسكينة كانت تتصور أنها تستطيع الفكاك من أَسْرِ ذلك الرجل . ولكنها ضعفتْ عن ذلك : وها هى ذى تلعب وتمرح معه ..

عُدْت أنظر فى الخطاب فوجدتُ فيه حاشية تقول إنها كانت قد أعدَّت معظم ملابس عمها التى لم يستعملها ولن يستعملها قط . ووضعتها فى حقيبة لتعطينى إياها . كان ذلك قبل أن تَلْقَى هذا الثعلب ، وأنها تركتْ الحقيبة عند مدام فولار .

وقالت إليس :

- لقد أتيت بالحقيبة وهى الآن فى حجرتك وهذا مفتاحها .

- يا لكِ من امراة قديرة يا إليس ..!

كانت حقيبة ضخمة من ذلك الطراز الذى كان الناس يسافرون به فى البواخر ، كانت حقيبة سوداء من الجلد تملأ نصف الحجرة ، وناولت المفتاح لإليس ففتحتها ونظرت فبدا على وجهها فرح عظيم وقالت :

- حقًّا إن ستيفى إنسانة عظيمة .. لم تنسنى ! بعثت لى أنا أيضًا بملابس كثيرة ومضت تُخرِج ثوبًا بعد ثوب حتى تخيَّلْتُ أن ستيفى تركت لها دكانًا كاملاً من الملابس . لم تكن ملابس ستيفى بل ملابس خالة لها، مقاسها ينفع إليس .. وكانت هناك بلوزات وجوبات وجاكتة من الفرو .. كانت إليس ترقص طربًا كلما نظرت فى قطعة من هذه الثياب وتقول :

- جديدة .. كلها جديدة ! هذه ملابس لم تُلبس قط ! خسارة يا ستيفى يا ألف خسارة ..

أما ملابس الرجال فكانت شيئًا لا يوصف : خمس بذلات وواحدة سموكنج وأخرى فراك وقمصان وأربطة رقبة وصداريات واحد منها من جلد الشاموا ، ومحافظ أوراق من الجلد .

وقالت إليس :

- جرِّب واحدة ..

وجرَّبتها كانت مقاسى ، غريب أن أكون أنا وعمها من مقاس واحد ، ولكن نفسى كرِهَتْها جميعًا . فتركت إليس تضعها بعناية فى الدولاب ، ثم أخذت أشياءها ومضت إلى غرفتها لتجرِّب ثيابها قطعة قطعة ، وأغلقت الباب والدمع فى عينى ..

خسارة يا ستيفى - يا للخسارة ..

* * *

وانقضتْ بعد ذلك شهور تغيَّر خلالها كل شىء فى حياتنا .. أصبحنا - إليس وأنا من سراة الناس - شكلاً على الأقل - فملابسنا فى غاية من الأناقة ، وفى كل ليلة نتعشى فى مطعم جديد بفضل العلاوة التى منحونى إياها فى العمل .

وانقضت ستة شهور أو سبعة ..

وكنت مرة فى مقهى من مقاهى بوليفار سان ميشيل ، وكانت الساعة الخامسة بعد العصر بقليل .. كنت قد فرغت من عملى مبكرًا وجلست فى المقهى أتناول فنجانًا من القهوة ..

ومرَّت أمامى سيدة صغيرة تضع على عينيها نظارة سوداء كبيرة خُيِّل إلىَّ أول الأمر أنها عجوز . ولكن استلفتَ نظرى أنها عندما رأتنى

أجفلت ، وكانت على رأسها قبعة كبيرة حالت بينى وبين النظر إلى ملامحها ، ولكن شيئًا فى داخل نفسى هتف بى :

- إنها هى .. هذه هى ستيفى ..

ونظرتُ فإذا بها تنحرف يمينًا فى شارع جانبى . خُيِّل إلىَّ أنها تجرى . وتركتُ ثمن القهوة فى طبق الفنجان وقمتُ أجرى مسرعًا خلفها ولحقتُ بها فى شارع سان جاك الموازى لشارع سان ميشيل ، كانت تعدو عَدْوًا .

وعندما أحسَّتْ أن إنسانًا يتبعها وقفتْ وأسندتْ ظهرها للحائط حتى لحقتُ بها فقالت : ماذا تريد .. ؟

وخِفْتُ أن أكون قد غلطت فوقفتُ أتأمل وجهها جزءًا من ثانية ، هنا فقط تبيَّنتُ أنها هى ستيفى ..

كانت مُصْفرَّة اللون نحيلة الوجه . ولم أَرَ عينيها خلف النظارة فقلت :

- معذرة .. ولكن .. هل أنت ..

فخلعت نظارتها وقالت غاضبة :

- نعم .. أنا هى .. أنا ستيفى ماذا تريد منى .. ألم ينتهِ كل شىء بيننا ..؟

- لا يا ستيفى .. لم ينته .. هل تتصورين أننى نسيتك ..؟

- إننى أريد أن تنسانى أرجوك ، لا تنظر إلى وجهى . لا أحب أن ترانى على هذه الصورة .. إنْ كنتَ تحبنى حقًّا فاتركنى وشأنى .

- لا يا ستيفى .. لا أستطيع أن أتركِ .. إننى لم أكُفّ عن التفكير فيكِ يومًا ..

- بعد الذى فعلتُ معكَ ..؟

- هذا لا يهم يا ستيفى .. الذى يهم هو أنتِ ..

وأجهشتْ فى البكاء ، وألقتْ بنفسها علىّ ومال رأسُها على كتفى وأخذت تتشنج !

ووقعت القبعة الكبيرة على الأرض ، وناولتنا إياها سيدة عجوز وهى تقول :

- قبعتكِ يا صغيرتى .. مسكينة ..

وسارت العجوز خطوات ثم التفتت ، وقالت :

- كل الرجال كلاب .. اصفعيه على وجهه بدلاً من أن تبكى على كتفه!.. خنازير .. ! كلهم خنازير ..!

وسِرْتُ معها صامتين ، بعد قليل نادت تاكسيًا ، فقلت :

- تحبين أن نجلس فى مقهى ..؟

- وأنا على هذه الصورة !

ثم أعطتْ السائق عنوان بيتها ..

شقتها البديعة التى كانت تتألق جمالاً بدتْ لى كأنها بيت مهجور .. النباتات الخضراء التى كانت تزينها جَفَّ الكثير منها . فأسرعت أَرْويه بالماء وجلست على الأريكة الجميلة وخلعت قبعتها . أين ذهبت لمعة الشعر ؟ أين ذهب بريق العيون الزُّرق ؟ أين ذهبت نضارة البشرة ؟ حتى يداها كانتا نحيلَتينِ ..

نظرت إلىّ طويلاً .. ثم قالت :

الآن أظن أنك شبعتَ منى : أنت ترى أننى أصبحت حطامًا .

- هذا الكلب !

- لا يا تيو .. إنه ليس مسئولاً .. أنا المسئولة .. حقًّا إنه كلب حقير . ولكنى كنتُ أعرف أنه كلب حقير ، وتركتُك ومضيتُ معه وأنا أعرف أنه كلب ولص .. ولكنى أنا أسوأ منه ، أنا امرأة ضعيفة لا أساوى شيئًا ولا أصلح لشىء .. تركتُ نفسى بين يديه كأننى لعبة .. وليست هذه هى المرة الأولى ! تلك هى الثالثة .. لا أدرى ماذا أصابنى ..

- نسأل الله ألا يعود الرابعة ..

- لن يعود .. لأنه هذه المرة أخذ كل ما عندى .. حتى سيارتى تنازلتُ له عنها حتى يبتعد عنى .

ثم دخلتْ غرفتها وعادت بصندوق الجواهر والنقود ووضعته أمامى وفتحته . كان فارغًا تمامًا .. فنظرتُ إليها ذاهلاً ، وقلت :

- ستيفى .. ماذا جرى لكِ .. هنا كانت أشياء تُقدَّر بنحو مليون من الجنيهات الإنجليزية .

نظرتْ إلى الأرض ، وقالت :

- ضاع كل شىء .. أعطيتُه أنا بيدى أشياء وسرق هو الباقى .. وأجهشتْ باكيّة ونظرتُ إلى الصندوق ولم أتمالك دمعى .. وبعد قليل قلت :

- خفِّفى عنكِ ، ما ضاع ضاع . والمال يمكن تعويضه ..

- وأنا .. مَنْ يعوض ما ضاع منى .. انظر إلى وجهى وشعرى ..

- ماذا جرى لكِ ؟ ماذا فعل بكِ ؟

- لا أدرى تشاجرنا وتصالحنا مائة مرة .. تصور أننا ذهبنا معًا إلى فندق فى برايتون فى انجلترا واستأجرنا غرفة عظيمة على البحر .. وفى

اليوم التالى أجده مع الخادمة فى نفس الغرفة .. ومع ذلك غفرتُ له رغم ما عانيتُ .. ومن شهر فقط وعدنى بالزواج وأقسم أن يصلح من شأنه ويستقيم ، وحسبتُ أنه صادق ، وبالفعل كان لطيفًا معى بضعة أيام ثم طلب ألفى جنيه فأعطيته . وذهبنا إلى القنصلية الكندية وأعلنَّا رغبتنا فى الزواج وقدّمتُ أوراقى ووعد هو بأن يقدم أوراقه بعد يومين .. قال إنه بعث يطلبها من بلدة قرب مرسيليا .. وفرحتُ بذلك وتنازلت له عن سيارتى ..

- واختفى .. ظللتُ فى برايتون أنتظر وحدى حتى صرتُ على الحالة التى ترى .. وعُدْتُ فقابلتنى البوابة مدام فولار .. أنتَ تعرفها .. ومنها عرفتُ بعد فوات الآوان أنه متزوج وله ولدان ..

- لقد خدعتْكِ مدام فولار أيضًا ..

- لا .. لا ذنب لها .. إنها ما كانت تعلم .. لقد خدعنا كلنا ..

وظللنا صامتين دقائق ، ثم قلتُ :

- وماذا ستعملين الآن ..؟

- لقد عرف عمى كل شىء ، فأرسل يستدعينى .. قال : إننى لن أستطيع الحياة هكذا .. عنده حق ..

- ستعودين إلى كندا ..؟

obeikandl.com

- نعم .. امرأة مثلى لا تُؤْمَن على نفسها ..

- لا تكونى قاسية على نفسك ..

- إن أحدًا لن يقبلنى الآن .. ولا أنتَ ..

- يا عزيزتى ستيفى .

- لو أنك وافقتَ على أن نعود معًا كما كنا لرفضتُ أنا لأننى أحبكَ . إننى لا أستحق شيئًا يا تيو .. إننى كارثة على نفسى وعلى الآخرين ..

- دعينا من هذا الكلام الآن .. لننسَ ما حدث الليلة فقط . سنكلم إليس بالتليفون سيسعدها الخبر .

فصرخت :

- لا أريد أن ترانى إليس هكذا ..

- إنها تحبكِ وسيسعدها أن تراكِ .

- إنها لن تحبنى عندما ترانى هكذا .

- نتعشى معًا هنا ، سأطلب من مدام فولار أن تأتينا بطعام .. إننى بحاجة إليك .. لا تتصور كم أنا مرتاحة لوجودكَ معى .. حقًا إن الرجل الذى يُعتمد عليه نادر ..

ثم نهضتْ وأمسكتْ التليفون وكلَّمتْ مدام فولار وطلبت عشاءً من مطعم قريب ، ونظرت إلىَّ وابتسمت ، ثم قالت : والآن أدخل لأصلح من شأنى وأعود إليك .

* * *

وعادت . دهشتُ حين رأيتها . لقد عادت إلى شبابها ، لونها الوردى وزُرْقة عينيها الصافية ولمعة شعرها كل ذلك عاد ، كانت تضحك من جديد وتجرى فى مرح . تناولنا العشاء .. وبعد الأكل ظلت واجمة لحظات ، ثم قالت :

- هل حقيقة أنك عُدْتَ لى ..؟

- نعم

- إلى الأبد .

- نعم .. ونسيتَ ما بدر منى ..؟

- نسيتُ . وتناولتْ يدى وقبَّلتها ، وقالت : الآن أستطيع أن أنام !

وتركتها ومضيت .

عندما كنت فى حوش البيت وجدت البوابة مدام فولار تستدعينى بإشارة من يدها دخلت مسكنها البسيط . كان زوجها مُكوَّمًا على

منضدة وأمامه زجاجة نبيذ . هذا الرجل يشرب ستة لترات نبيذ فى اليوم . إنه حطام .

قالت : لا تتصور كم أنا سعيدة لأنك عُدْتَ إليها ..

- أنا لم أَعُدْ . لقد رأيتُها صدفة .. وقصصت عليها ما جرى فقالت : المسكينة لقد عادت من رحلتها مع ذلك الرجل وهى كومة من اليأس والخراب . لو رأيتها فى الأيام الأولى لبكيتَ . لقد نهبها وأهانها وامتهن كرامتها وضربها ، نادتنى مرة فى منتصف الليل . كانت تريد أن تنتحر ولكنها أرادت قبل ذلك أن تراك .. أنت تقول إنك لقيتها صدفة . هذه البنت حَفِيَتْ قدماها وراءك . أنت بالنسبة لها الأمل الوحيد الباقى فى الحياة . ولكنها كانت خَجْلَى منك . من يوم جاءت وهى تجرى وراءك . أنت لم ترها ولكنك لم تتصور كم ساعة كانت تقضيها واقفة قرب بيتكَ وعينها على الباب كى تراك . كانت تريد أن تتحدث معك . إنها فى حاجة إلى سند معنوى . فى حاجة إلى أب وصديق . لا تتصور كم مرة قطعت «بوليفار سان ميشيل» بحثًا عنك . كم مرة ذهبت إلى طابق المكتبات الخاصة فى السوربون حيث تعمل أنت ولكنها لم تجرؤ على خطابك .. أنت لو تدرى أنك اليوم أنقذتها .

وبعد لحظة صمت قالت :

- تزوَّجها يا بنى .. إنها بنت طيبة جدًّا . لا عليك من أخطائها ، إنها طفلة ، وهى غنية جدًّا ، عندهم أراضٍ ومصانع لا أدرى أين فى كندا ، وعمها غضب عليها وجاء هنا وأنذرها . لقد أمرها بأن تعود إلى كندا وهى عائدة ، ثم تحدَّث معى عنها فحكيتُ له عنك . إنه يريد أن يراك . لقد ذهب لبعض العمل فى انجلترا وسيعود ، هل تعدنى بأن تقول له بأنك مستعد لزواجها ..!

- مدام فولار .. دعينى أفكر .. إن ما حدث اليوم كثير جدًّا ، ورأسى يدور .

- أريد أولاً أن أنام . . إننى متعب جدًّا .

- حسنًا .. أنا أفهم ذلك ، ولكنى أدعوك وستيفى للغداء معى هنا غدًا .. لا ترفض أرجوك ..

ولم أكن أستطيع الرفض . أنا أيضًا كنت فى حاجة إلى ستيفى واجتمعنا معًا على مائدة مدام فولار . كان وجهها مشرقًا ضاحكًا . لقد زايلها همُّها . بعد الغداء تركتنا السيدة ودخلت المطبخ . ظللنا صامتين. بعد لحظات قلت : ستيفى . لقد نسيت ما حدث تمامًا ، ونستطيع أن نواصل حياتنا كما كنا اعتزمنا .

فأشرق وجهها وقالت :

- إن ما عملتُه لا يُغتفر ، أنا لا أصدق أنك تنسى ذلكَ ، ولكن ما دمتَ أنت تقول ذلك فإننى أصدق . لا تدرى كم أنا شاكرة لك ..

- هل أنتِ واثقة من أن جان كلود قد خرج من حياتك ..؟

- أنا واثقة ..

- إذن : فأنا طوع إرادتكِ .. أنتِ إنسانة طيبة جدًّا وامرأة جميلة ، وأعتقد أننا نستطيع أن نبنى حياة سعيدة .. كل ما عندى تحت تصرفك . إننا نملك أشياء كثيرة جدًّا وليس هناك إلا أنا وأختى وسيعطينا عمى كل شىء . كان لا يثق فىَّ ، ولكن عندما حدَّثته عنك . وعندما حدثته مدام فولار قال : إنه يرضى عنى من جديد بشرط أن نعود معًا إلى إلبرتا فى كندا ونعيش هناك .

- كما تريدين .. قلت لك : إننى اتخذت قرارى ولا رجوع .

بعد أيام وصل عمها من انجلترا . كان رجلاً محترمًا جدًّا . دعانى مرة أخرى للاجتماع به فى فندق الريمتز ، تحدثنا فى كل شىء وأخيرًا قال :

اسمع يا بنى . إننى رجل غنى جدًّا ولكنى مسكين . كان لى ابن مات فى حادث طائرة . مات مع أمه وأخى والد ستيفى . وامرأة أخى

ماتت وهى تلد ستيفى ، ولم يبق لى إلا ستيفى وأختها ماجداليا . ماجداليا متزوجة من مهندس كفء وهو الآن ذراعى اليمنى ، عيبه الوحيد أنه يريد أن يستولى على نصيب ستيفانيا لأنه يقول إنها لا تصلح لشىء ..

بالفعل هى ضعيفة ولا يُعتمد عليها فى عمل ، ولكن قلبها من ذهب ، إننى أحبها أكثر مما أحب ماجداليا ، ثم جاءت كارثتها مع هذا الصعلوك الفرنسى النصاب وكادت البنت تضيع . أنت تستطيع أن تنقذها إذا كنت فعلاً مستعدًّا للزواج منها . والمجىء معنا إلى كندا . أنا أعرف أنك تشتغل بالعلم وأنك تملك أن تصبح أستاذًا أو أديبًا كما تريد ، سأساعدك على أن تعمل فى جامعة إلبرتا ، ولكن العمل بالجامعة لن يأخذ كل وقتك سيكون عندك وقت طويل لتتولى نصيب ستيفى من العمل . إننا نتاجر فى الأخشاب ، وعندى مصنع نجارة ضخم ، ومصنع لعمل لُبَاب الخشب للورق .. شىء كثير جدًّا ستُلِم به عندما تعمل معنا ، إنك شاب ذكى وستستطيع أن تلم بذلك كله فى وقت قصير . إنى أعرف أن عليك التزامات نحن نتحملها كلها ، بل إننى أقترح عليك أن تنقل كل عائلتك إلى كندا وتعيشوا معنا هناك فى كندا .. إن الحصول على الجنسية الكندية سهل ما دمت ستتزوج كندية.

وتكلم كثيرًا جدًّا ، ثم توقف وسألنى :

- هل لك سؤال ..؟

- عندى سؤال واحد .. لماذا تصنع معى ذلك كله مع أن ابنة أخيك تجد ألفَ شاب خيرًا منى فى كندا .

صمتَ لحظة ثم قال : أنت لا تعرف مكانة ستيفى من نفسى .. إنها فى مكانة ابنتى الصغرى ولكنى أحبها أكثر من أى شىء فى الوجود .. لقد ماتت أمها وهى تلدها ولهذا فإنها تُذكِّرنى بمأساة امرأتى وأنت لا تتصور كيف كانت ناتاليا زوجتى تلك ..

إنها صاحبة الفضل الأعظم فيما نحن فيه ، ومن سوء الحظ أنها ماتت شابة .. وستيفى صورتها ولكنها طيبة جدًّا وساذجة جدًّا . وأنا أخاف عليها من ثعالب الشبان ، فلما عرفتُكَ وقع فى ظنى وإحساسى أنك رجل أمين تستطيع أن تحفظ ابنة أخى ومالها.

قلت :

- لتكن مشيئة الله .. سأفعل كل ما تريدون والله يعيننى على أن أَفِىَ بحقك وحَقِّ ستيفى ..

وقضينا بعد ذلك أيامًا نتحادث وندبر أمور المستقبل . الحقيقة أننى كنت كرجل فى قارب وسط بحر لا يبدو له شاطئ ، كنت عاجزًا عن

السيطرة على أى شىء ، فتركت المجاديف والقارب وجلست صامتًا وليصنع الله ما يريد .. كان دافعى الأكبر إلى ذلك هو حبى لهذه البنت وعطفى عليها . ومهما حدث فما كنتُ لأسىء إليها أبدًا ..

واتفقنا على أن تسافر هى وعَمُّها ، ويدبرا لى الأمر هناك ، فإذا تمت الإجراءات عادت هى وتزوجنا فى باريس ثم مضينا إلى كندا ..

* * *

وجاء يوم السفر ، لم تكن الطائرة ذائعة الاستعمال كما هو الحال اليوم. كان لا بد من أن نأخذ القطار من محطة «سان لازار» . إلى شيربورج ، ومن هناك نأخذ الباخرة .

وذهبت معها إلى محطة «سان لازار» كانت المحطة خالية ، وكان الرصيف الذى سنسافر منه باردًا ساكنًا ، وكان أمامى فى الناحية الأخرى من القضبان جدار كالح من الطوب الأحمر . كانت معنا إليس. وتوادعنا فى حرارة ، ثم صعدت إلى القطار وأطلّت من النافذة . وقبل أن يقلع القطار ناولتنى خطابًا مقفلاً ، وقالت لى :

- اقرأه بعد رحيلى .

فى البيت وبعد عودتنا جلستُ فى الصالون لأفتح الخطاب وأقرأه . كانت إليس لا تكاد تحتمل الصبر حتى تفرغ من الشاى ، وفتحنا الخطاب وناولتها إياه لتقرأه وأنا أسمع .

بعد ديباجة طويلة عنى وعن تقديرها لى وحبها وما إلى ذلك .. ولكنى يا أحبَّ الناس إلىَّ . ما ذنبك أنت حتى أبدل حياتك كلها بهذه القسوة . إننى أعرف أنك رجل علم وبحث وكتابة ، فكيف أرغمك على أن تدخل صناعة الأخشاب ؟ .. ثم إننى أعرف أنك تحب بلدك . وتريد أن تخدمها ، وأنا لا أريد أن أحرمك قَطّ من هذه السعادة .

ثم إننى غير واثقة من نفسى . لا بد أن أصارحك بالحقيقة ، لا أقصد أننى ربما عُدْتُ إلى جان كلود أو أميل إلى رجل آخر .. هذا مستحيل وأنت عندى نهاية الآمال .. ولكن حملى ثقيل . إننى لا أصلح لشىء سيكون عليك أن تعمل عملاً مرهقًا لأننى أنا لا أحب العمل ولا أعرفه ، ثم إن زوج أختى رجل عسير جدًّا وسيكون الصراع بينك وبينه عنيفًا لكى تحافظ على حقوقنا . لهذا كله وبعد تفكير طويل قررت أن أدخل الدير ، لقد شبعت من الدنيا وكرهتها .

أصارحكَ بأننى قضيتُ أيامًا أفكر فى الانتحار ، ولكنى خِفْت عليك . وأخيرًا استقر رأيى على دخول الدير . كانت أخصّ آمالى بعد

سقطتى مع جان كلود هو أن أستعيد احترام الرجل الوحيد فى الدنيا الذى احترمته وتعلمتُ منه احترام نفسى . والآن وقد تحققتُ من ذلك وضمنتُ رضاك عنى واحترامك إياى وحبك لى فإننى أحب أن أهرب من هذه الدنيا إلى الدير .

لأعيش هناك فى هدوء دون هجوم ، دون قلق على يوم أو غد .. فهناك فى الدير راحة اليأس من الدنيا والأمل فى الحياة الأخرى .. وإننى سأتزوج الكنيسة وأعيش هناك لأُكفِّر عما فعلت ولكى أصلى من أجلك .

إن كنتَ تحبنى فلا تكتب لى حرفًا لمدة سنوات ، أنا التى سأكتب لك. معذرة .

إذا احتجتَ لشىء فمالى كله فى يدك . اطلب من ألف إلى مائة ألف . إننى حرة التصرف فى أموالى لمدة خمس سنوات هى سنوات الاختبار فى الدير بعدها يعاملوننا كراهبات ونتزوج الكنيسة زواجًا لا انفصام له . فإذا أردتَ منى شيئًا فأمامك خمس سنوات ، وسيسعدنى أن أعطيك كل ما عندى لأننى عندما يُعمِّدوننى راهبة لا بد أن أتخلى عن كل ما أملك فى الدنيا ..

وسأفعل ذلك ولكن شيئًا واحدًا من أشياء هذه الدنيا لن أستطيع التخلى عنه :

أنت وذكراك ..

لا تكتب لى إلا إذا كنتَ تريد المال .. فما عدا ذلك لا تكتب لى أرجو ألا تضعفنى .. أريد أن تقوينى وتشد عزمى .. والإمضاء : الذاكرة المحبة إلى الأبد استفانيا مارجريتا سيجالوف ثورفتون .

وقفزت إلىَّ إليس ، كانت تبكى ، أنا أيضًا بكيتُ مع أننى عَصِىَّ الدمع ..

وفى هدوء شربنا الشاى ، ثم قلت :

نهاية سعيدة ! لا أدرى .. إنها سعيدة ولكنها غارقة فى الدموع .

وبعد لحظات قالت :

- والآن تطلب منها مائة ألف دولار .. أو أقول لك مائتى ألف منها شىء لى .

فسكتُّ طويلاً ، ثم وضعتُ الخطاب فى جيبى ، وقلت :

ولا دولار واحد يا إليس .. دعكِ من هذا النظر الدائم إلى المال . هذا حلم جميل انتهى ، إن الأحلام تنتهى بكل ما فيها بمجرد أن يفتح الإنسانُ عينيه ..

لقد فتحنا كلنا عيوننا .. هى ونحن .. انتهت الأحلام . كل شىء الآن ذكريات ..

وساد صمتٌ .. وفى سكون الصمت دقَّتْ الساعة اثنتى عشرة دقة فى بُطْءٍ وعمق .. كانت قطرات دموع لا دَقَّات ساعة .

* * *

obeikandl.com